﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة: 1 - 2]

❁ مُناسَبَةُ بدايةِ سّورة الواقعة لختامِ سورة الرّحمن:

الواقعة امتدادٌ لما خُتِمت به سورة الرّحمن

لمّا خُتمت سورة الرَّحمن بقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمن: 78] وهو ختام جامع بين معاني الجلال الَّذي يقتضي الهيبة والعظمة، والإكرام الَّذي يفيض بالنِّعم والعَطاء، وهو عُنوانُ ربوبيَّةٍ تشمل بداية الخلق ومنتهى العناية، جاءت سورة الواقعة لتكون امتدادًا لهذا السّياق الكونيّ الشّامل، فبدأت بذكر الواقعة الكبرى الَّتي هي نهاية الدّنيا وبداية الحساب والجزاء: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ فبين ختام سورة (الرّحمن) وبداية (الواقعة) انتقال من التّعريف بربٍّ عظيم منّان في الخلق والإكرام، إلى مشهدٍ من مشاهد قدرته في إتمام أمر الخلق، وخَتم مسيرتهم بالحساب والعدل؛ ليعلم العبد - وهو المخاطب - أنّ من ابتدأ بالإكرام لا يظلم، ومن اتَّصف بالجلال لا يُعجزه شيء، ومن رَبّى الخلق فهو كفيلٌ بجزائهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾: الوَقعُ: وقعَةُ الضَّرب بالشّيء. ووَقعُ المطرِ، ووَقعُ حوافِرِ الدّابَّةِ، يعني: ما يُسمَعُ من وقعِه. ويقال للطّير إذا كان على أرضٍ أو شجرٍ: هنّ وقوعٌ ووُقَّعٌ[1]؛ وجاءت (الواقعة) في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ بصيغة اسم فاعل مؤنث، وهي اسمٌ من أسماء القيامة، والواقعة تفيد التَّحقُّق الحتميَّ؛ فمن معاني الوقوع الثّبوت واللّزوم، فيفيد أنَّ هذا الحدث واقع لا محالة، وهي تفيد كذلك الشّدّة والمباغتة؛ إذ ارتبطت أغلب استعمالات (الوقوع) في القرآن الكريم

(1) الخليل، العين: (وقع).

بالعذاب أو الأمور العظام كما في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ [المعارج: 1 - 2]، وقوله: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥﴾ [النّمل: 85]. هذا فضلًا عمّا تحدثه هذه اللّفظة من الصّدمة، فـ ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ صدمة كونيَّة تهزّ العالمين، وهي تصيب الخلق أجمعين. و"الوُقوعُ: ثبوتُ الشَّيءِ وسقوطُهُ. يقال: وقَعَ الطّائرُ وُقوعًا، والواقِعَةُ لا تقال إلّا في الشّدّة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وَقَعَ) جاء في العذاب والشّدائد"(1).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اليقين بوقوع القيامة حتميٌّ لا يقبل الشّكّ

﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ اسم للقيامة، كالآزفة، وافتتحت السّورة بهذا الإعلان الجليل، لبيانِ لحظة الفصل الكبرى الَّتي لا مردّ لها. فـ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ اسم يحمل الهيبة واليقين، فلا تُعرّف القيامة بزمان، بل بوقوعٍ حتميّ لا يحتمل الشَّكَّ. ثمَّ تأتي الآية التَّالية ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، إذ ليس في وقوعها إمكانُ تكذيبٍ، فإذا جاءت، أبطلت كلَّ جدل، وأفحمت كلَّ منكر، وصدَّقت كلَّ وعدٍ سبقها. فهي واقعة لا يشوبها وهم، لا يمكن دفعها، ولا تبديل ميعادها، ولا إنكار حقيقتها. وفي هذا انتقال من عالم الابتلاء والسَّتْر إلى عالم الجزاء والظُّهور، حيث يُبصِر كلُّ امرئٍ ما قدّم، وتوزَن الأمور بميزان الحقِّ الَّذي لا يميل. "وليس لوقعتها أي: لمجيئها وظهورها، كاذبة أي: كذب، أي: أنَّها تقع صدقًا وحقًّا. وليس فيها، ولا في الإخبار عن وقوعها كذب"(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الظَّرف الزَّمانيّ في افتتاح سورة الواقعة تعليق وتشويق وهيبة

براعة الافتتاح بالظّرف المتضمّن الشّرط:

الاستفتاح بالشَّرط؛ في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ من

(1) الراغب، المفردات: (وقع).
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 231 - 232.

أنواع افتتاح السّور القرآنيَّة، ومثله قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: 1] وقوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التّكوير: 1][1]. وعلى القَولِ بظَرفيَّةِ ﴿إِذَا﴾ تَشويقٌ لِمَعرِفَةِ ما يَحدُثُ وقتَ وُقوعِ الواقِعَة، مِن هَولِ المَوقِفِ وشِدَّتِهِ وعَظيمِ جَزائِهِ، إذ إنَّ افتِتاحَ السّورَةِ بالظَّرفِ المُتَضَمِّنِ الشَّرطَ، افتِتاحٌ بَديعٌ؛ لأنَّهُ يَستَرعي الألبابَ لِتَرَقُّبِ ما بَعدَ هَذا الشَّرطِ الزَّمانيِّ مَعَ ما في الاسمِ المُسنَدِ إلَيهِ مِنَ التَّهويلِ بتَوَقُّعِ حَدَثٍ عَظيمٍ يَحدُثُ. ويَظهَرُ وجهُ البَراعَةِ في هَذا الافتِتاحِ بظَرفيَّةِ ﴿إِذَا﴾ دونَ جَوابٍ ظاهِرٍ؛ و﴿إِذَا﴾ ظَرفُ زَمانٍ وهوَ مُتَعَلِّقٌ بالكَونِ المُقَدَّرِ في قَولِهِ: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وقَولِهِ: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾، وقَولِهِ: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾. وضُمِّنَ ﴿إِذَا﴾ مَعنَى الشَّرطِ[2]. فلَيسَ الغَرَضُ مِنَ الجُملَةِ الشَّرطَ والجَوابَ، بَل إثارَةَ مَشهَدٍ زَمَنيٍّ مُهيبٍ؛ لإثارة التّشويق.

هذا فضلًا عَنِ التَّمهيدِ النَّفسيِّ والذِّهنيِّ لِهَولِ القيامَةِ؛ إذ استِخدامُ الظَّرفِ ﴿إِذَا﴾ يوحي بأنَّ الحَديثَ عَن شَيءٍ عَظيمٍ سَيَحدُثُ في المُستَقبَلِ، ولأنَّ الفعلَ جاءَ بصيغَةِ الماضي ﴿وَقَعَتِ﴾، نَشَأ تَفاعُلٌ عَجيبٌ بَينَ زَمَنِ الحَدَثِ وتَوكيدِهِ، ممّا يُعَمِّقُ الإحساسَ بأنَّ الأمرَ مَحتومُ الوُقوعِ، لَكِنَّهُ لَم يَقَع بَعدُ في الزَّمَنِ الظّاهِريِّ. وهكَذا فإنَّ هذا الافتِتاحَ يُدخِلُكَ في السّورَةِ مُباشَرَةً، بهَيبَةٍ وصَوتٍ داخِليٍّ يَقولُ: انتَبِه، الآنَ تَبدَأُ مَشاهِدُ القيامَةِ بتَشويقٍ وهَيبَةٍ وتَعَلُّقٍ ذِهنيٍّ في انتِظارِ الجَوابِ وتَحفيزٍ على الاستِماعِ. فكانَ مُفتَتَحُ السّورَةِ بـ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ بمَثابَةِ طَرقِ البابِ؛ لإيقاظِ الغافِلينَ، والنَّفخِ في الآذانِ أنِ استَعِدّوا لِلحِسابِ.

توجيه أداة ﴿إِذَا﴾ بين الشَّرطيَّة والظَّرفيَّة:

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ من المسائل الَّتي وقع فيها خلاف نحويٌّ وبلاغيٌّ بين الأئمَّة: هل هي شرطيَّة أو ظرفيَّة؟ وما هو العامل فيها؟.

فَيَرَى الزَّمَخشَريُّ أنَّ ﴿إِذَا﴾ ظَرفيَّةٌ زَمانيَّةٌ، والعامِلُ فيها ﴿لَيْسَ﴾[3]. والمَعنَى: في وقتِ وُقوعِ الواقِعَةِ، لا يَكونُ لِوُقوعِها كاذِبَةٌ. وهوَ يَختارُ هَذا الوَجهَ لِبَلاغَتِهِ؛ لأنَّهُ يَجعَلُ التَّركيزَ على الزَّمَنِ العَظيمِ لِلواقِعَةِ، ويَربِطُ الحَدَثَ بالهَيبَةِ والرَّهبَةِ المُرتَقَبَةِ، ويُضفي على الجُملَةِ

(1) الزّركشيّ، البرهان، ص: 180.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 281.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 454.

وقـت وقـوع الواقعة يتلاشى التّكذيب ويزول المكذّبون

جَلالًا تَصويريًّا، يوحي بأنَّ مُجَرَّدَ وُقوعِ الواقِعَةِ يُبَدِّدُ كُلَّ شَكٍّ، ويَنفي كُلَّ تَكذيبٍ. وأنَّ هَذا التَّوجيهَ يُعطي لِلَّفظِ ﴿إِذَا﴾ دَورًا بَيانيًّا بَصَريًّا، فيَرسُمُ مَشهَدًا قَويًّا لِزَمَنِ الوُقوعِ، ويَجعَلُ ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ حاضِرَةً في الذِّهنِ كَحَدَثٍ لا شَكَّ فيهِ.

القول بتمحيض (إذا) للشّرط بعيدٌ من حيث البلاغة، مقرَّرٌ من حيث الصّناعة

وَقيلَ إنَّ ﴿إِذَا﴾ شَرطيَّةٌ، وجَوابُ الشَّرطِ هوَ جُملَة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، أي هوَ جَوابُ الشَّرطِ لا مَعمولُ اَلظَّرفِ. ورَأى بَعضُهم أنَّ العامِلَ مَحذوفٌ تَقديرُهُ: (اُذكُر إذا وقَعَتِ اَلواقِعَةُ). وذَهَبَ أبو حَيّانَ إلَى هَذا الرَّأيِ الَّذي خالَفَ بِهِ الزَّمَخشَريَّ، ورَأى أنَّ ﴿إِذَا﴾ شَرطيَّةٌ، وأنَّ الجَوابَ مَحذوفٌ تَقديرُهُ: إذا وقَعَتِ الواقِعَةُ حَصَلَ كَذا. وذَلكَ مُراعاةً لِلصِّناعَةِ اَلنَّحويَّةِ، لِأنَّ اَلشَّرطَ عادَةً يَتَطَلَّبُ جَوابًا، واللُّغَةُ تَقبَلُ حَذفَ الجَوابِ إذا دَلَّ عَلَيهِ السِّياقُ. ولَعَلَّ في هَذا الرَّأيِ وجهَ ضَعفٍ، فهوَ وإن كانَ أدَقَّ مِن حَيثُ الصِّناعَةُ النَّحويَّةُ، إلّا أنَّهُ أضعَفُ مِنَ النّاحيَةِ البَلاغيَّةِ، لِأنَّهُ يُغفِلُ التَّأثيرَ البَصَريَّ والظَّرفيَّ الَّذي تَحمِلُهُ ﴿إِذَا﴾، ولا يُبرِزُ رَهبَةَ المَشهَدِ.

والقَولُ الأرجَحُ أنَّ ﴿إِذَا﴾ ظَرفيَّةٌ، والعامِلَ فيها ﴿لَيْسَ﴾، وهوَ الأليَقُ بمَقامِ اَلسّورَةِ الَّذي افْتُتِحَ بالتَّهويلِ والتَّوكيدِ، ولَيسَ بمُجَرَّدِ تَعليقٍ مَنطِقيٍّ. وهَذا الاختيارُ يَربِطُ بَينَ الحَدَثِ الكَونيِّ العَظيمِ (الواقِعَةِ) وبَينَ نَفيِ التَّكذيبِ المُطلَقِ، فيَتَكَوَّنُ مِنَ الجُملَةِ مَشهَدٌ مَهيبٌ عَظيمٌ يَعكِسُ مَقصِدَ السّورَةِ في تَصويرِ حَتميَّةِ وُقوعِ السّاعَةِ، وجَلالِ المَوقِفِ عِندَ وُقوعِها.

نكتة تقديم ﴿إِذَا﴾ على ﴿لَيْسَ﴾:

بناء هيبة الحدث وجلال الموقف مع التّشويق لما بعده

قُدّمَ الظَّرف في قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ على الجملة الخبريَّة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾. ولم يأتِ بصيغةٍ أخرى مثل: (ليس لوقعة الواقعة كاذبة إذا وقعت)، أو (ليس لوقعة الواقعة إذا وقعت كاذبة)؛ لإفادةِ التَّهويل والتَّشويق؛ وافتتاح السّورة بـ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ يجعل

المتلقّي يتهيّأ لسماع شيء عظيم، فيه رهبة وهيبة، وكأنَّ السّورة تُفاجئه بمشهدٍ كونيٍّ مزلزل، ثمَّ تأتي الجملة التّالية ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ لتؤكّد أنَّ هذا الحدث حقٌّ لا مرية فيه، ولو قُدّمت جملة النَّفي، لضاع هذا الإحساس بالتَّشويق والرَّهبة، وإبراز عظمة الحدث.

فضلًا عن أنّ ترتيب المعاني يأتي على حسب الأهمّيَّة؛ فالقرآن الكريم يقدِّم الأهمَّ فالمهمَّ، فالمقام هنا ليس لنفي الكاذب فحسب؛ بل هو كذلك لتعظيم وقت الوقوع، ثمَّ لبيان ما يترتّب عليه.

أمّا عن علاقة ذلك بالمناسبة لجوِّ السّورة فنجد أنّ السّورة من أوّلها إلى آخرها قائمة على التَّصوير الحيِّ لأهوال القيامة وأصناف النّاس، فتقديم ﴿إِذَا﴾ يُناسب هذا النَّسق المشهديَّ؛ لأنَّه يُدخل السّامع فورًا في أجواء الواقعة، كأنَّها تحدث الآن.

بلاغة استعمال مفردة ﴿وَقَعَتِ﴾:

جاء اختيار فعل ﴿وَقَعَتِ﴾ دون مرادفاته من الأفعال؛ كأن يُقال: (إذا جاءت الواقعة)، أو (حدثت الواقعة)، أو (نزلت الواقعة)، لدلالة فعل ﴿وَقَعَتِ﴾ على السُّقوط والثِّقل واللُّزوم، والفعل (وقع) في العربيَّة يدلُّ على سقوط شيء ثقيل، أو حدث جلل لا يُردّ، كما يقال: وقعت الكارثة، ووقعت الحرب. والوقوع يوحي بشيء صار فجأة، ونزل بثقلٍ رهيبٍ لا يستطيع أحد دفعه أو رده. وهو الأنسب في التَّعبير عن القيامة، فهي ليست حدثًا عابرًا، بل زلزالًا هائلًا مهيبًا لا مردّ له.

الوقوع دليل الحتم والثِّقل واللُّزوم

فائدة التَّعبير بصيغة الماضي ﴿وَقَعَتِ﴾:

حين يُفتتح الخطاب الإلهيُّ بهذه العبارة الجليلة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، فإنَّ أوَّل ما يُلفت النَّظر هو هذا الجمع العجيب بين أداة ظرفية تدلُّ على المستقبل، وفعل ماضٍ يدلُّ في الأصل على الحدث الَّذي انقضى وانتهى، وهذا أسلوبٌ قرآنيٌّ معهود، يُراد به التَّحقيق والتَّوكيد[1].

تحقيق اليقين وتوكيد الحتم يُثير الفزع في النُّفوس الرّاكدة

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 272.

إذ الماضي ليس على بابه الزَّمنيِّ، وإنَّما هو ماضٍ صوريٌّ، يُراد به معنى الوقوع المقطوع به، الَّذي لا يعتريه ريبٌ أو احتمال. فالفعل ﴿وَقَعَتِ﴾ وإن كان في ظاهر الزَّمن منقضيًا، إلّا أنَّه يُصوِّر المستقبل تصويرًا يُخرجه من دائرة الانتظار، ويجعله في مرتبة المشهود المتحقِّق. وهذا أبلغ في تثبيت العقيدة، وترسيخ الإيمان بوعد الله؛ لأنَّ الماضي يُنزلُه منزلة الحاضر بل الماضي المشاهد، فيلقي بذلك على النَّفس هولَ المفاجأة، ويُثير ما في القلب ليزيد من اليقين الجازم، كأنَّ ما سيقع قد وقع بالفعل، فما بقي للمرء إلّا أن يُعدّ له العدّة ويأخذ له الأهبة. فجاء الافتتاح بصيغة الماضي ليُعلن من اللَّحظة الأولى أنَّ القضية قد حُسمت، وأنَّ الكلمة قد نُفذت، وأنَّ الإنسان ما عاد في سعة من الزَّمن، بل هو في مهبِّ الوعد والوعيد.

بلاغة الإسناد المجازيِّ في إسناد الوقوع للواقعة:

إسناد الفعل إلى الواقعةِ يُصوِّر المشهد ويستحضر الصّورة

أُسند فعل الوقوع إلى الواقعة في قول الحقِّ جلَّ شأنه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾؛ إذ أُسند الفعل لا إلى من وقع منه حقيقة، بل إلى ما له به تعلُّق معنويٌّ، توخّيًا لأغراض بلاغيَّة دقيقة. فالواقعة ليست ذاتًا فاعلة في الحقيقة، وإنَّما هي اسم لما سيقع من أمرٍ عظيم، والَّذي يوقعه هو ربُّ العالمين، والتَّعبير القرآنيُّ أسند الوقوع إلى الواقعة نفسها، وذلك هو المجاز العقليُّ، الَّذي يُسند الفعل إلى غير فاعله، قصدًا إلى إبراز شأن الفعل أو تعظيم أثره.

وفي هذا الموضع، تتجلَّى لنا حكمة الإسناد المجازيِّ؛ إذ ليس المراد أن نعلم من الَّذي يُقيم السّاعة، فذلك واضح لكلِّ من آمن بالله، وإنَّما الغرض إشعار النَّفس بهول هذا الحدث، حتَّى ليُخيَّل إليها أنَّه قائم بذاته، منفصل عن كلِّ فاعل، له من القوَّة ما يُقيمه بذاته، ويقع على العالم وقوعًا لا مردَّ له، وهو ما يُكسِب الواقعة تشخيصًا في الذِّهن؛ فكأنَّها كائن قائم، له ذات وحيّز، يُقبل على

النّاس دفعة واحدة، لا حراك لأحد في وجهه، ولا حيلة للفرار منه، إنَّها ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ الَّتي إذا ذُكرت قُطعت القلوب، وإذا صوِّرت ارتعدت الأفئدة، بما فيها من هول وخطر.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾:

كلُّ واقعة دون القيامة فليست بواقعة على التّحقيق

جاء لفظ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ مُعرَّفًا بـ (أل)، وهي هنا للعهد الذّهنيّ، تشير إلى واقعةٍ معينة، معروفةٍ في الأذهان، متقرِّرةٍ في القرآن، فالسّامع لا يَلتبس عليه المقصود؛ بل يندفع ذهنه إليها، كما ينصرف إلى (الكتاب) عند إطلاقه في الخطاب القرآنيِّ أنَّه القرآن الكريم. وغرض التَّعريف ليس مجرَّد الإشارة، بل التَّعظيم والتَّهويل، فضلًا عمّا يحقِّقه التَّعريف من الدَّلالة على الكمال[1]، فهي الواقعة الكاملة في صفاتها وآثارها وأهوالها، وكلُّ واقعة دونها فليست بواقعة قياسًا معها، فهو يُضفي على الواقِعَة مهابةً وسُموًّا في النَّفس؛ إذ يُخرجها من جنس الوقائع العادية إلى الواقِعَة الَّتي لا واقعة فوقها، والَّتي إذا ذُكرت انقبض القلب، وإذا صوِّرت اهتزّ الكيان[2].

الغرض من تأنيث لفظ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾:

تأنيث الواقعة لتشخيص الكارثة وتهويل الواقعة

أُنِّث لفظ ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ لما جاء في أساليب العرب من استعمال التَّأنيث في سياق التَّهويل والتَّعظيم، فهو تأنيثٌ لا علاقة له بالأنوثة النَّوعيَّة، بل هو من أساليب تشخيص الكوارث والمفاجآت العظيمة. تقول العرب: الدّاهية، النّازلة، الصّاعقة، القاصمة، فهي توحي بشدَّة مباغتة، ذات أثرٍ عنيف، يُداهم الوجود ولا يُمهله.

فالتّاء في ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ إمّا أن تكون للنَّقل من الوصفيَّة إلى الاسميَّة، وإمّا أن تكون للمبالغة، ولعلَّها جاءت بالاثنين معًا، فهو اسم لوقائع عظام سوف تقع يوم القيامة.

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 263.
(2) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 224.

ومن بلاغة القرآن أنَّه يختار هذا النَّمط من الصّيغ في أسماء يوم القيامة، فيأتي بالألفاظ المؤنَّثة المعروفة: الحاقَّة، القارعة، الطّامَّة، الصّاخَّة، القيامة، وهي صيغٌ تُحاكي بجرسها اللَّفظيِّ طبيعة المُسمَّى: مباغِتة، صارخة، ذات وقعٍ قويٍّ، تصدم النَّفس قبل أن تُشرح للعقل. وليس ذلك من التَّزيين اللَّفظيِّ، بل هو جزء من الأسلوب التَّأثيريِّ للقرآن، الَّذي يُراد به أن تُعاش القيامة في السَّمع والبصر والخاطر، لا أن تُتلقَّى كمجرَّد غيبٍ مؤجَّل.

براعة استعمال مفردة ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾:

تجتمع في لفظ (الواقِعَة) معاني الـقـوّة والهيبة والمباغتة والشِّدّة

خصَّ النّظم الكريم هذا الاسم ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ بالذِّكر في صدر السّورة، وذلك للمح الأصل اللُّغويِّ لكلمة ﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ فهي مشتقَّة من الجذر الثُّلاثيِّ (و ق ع)، وهو جذرٌ شديد المأخذ في اللُّغة العربيَّة، تدلّ مادَّته على الانقضاض المباغت، والسُّقوط الثَّقيل، والحدوث الَّذي لا يُقاوم، كما تقول: (وقعت المصيبة)، و(وقع السَّيف)، و(وقع البلاء)، فكلُّها إشارات إلى أفعال ذات ثقل في النَّفس، وهجوم في الزَّمن، لا تأتي تمهيدًا، بل تَهبط دفعة، وتزلزل المواضع الَّتي تنزل بها. وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وَقَعَ) جاء في العذاب والشّدائد نحو قوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ [النَّمل: 85]؛ أي: وجب العذاب الَّذي وُعِدوا؛ لظلمهم، وقال تعالى: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النَّمل: 82] أي: إذا ظهرت أمارات القيامة الَّتي تقدّم القول فيها. وقال: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٞۖ﴾ [الأعراف: 71] وقال: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ [يونس: 51][1]. ولفظة الواقِعَة حين تُلقى في السَّمع، تُحدِث في النَّفس وقعًا يشبه قرع الخطر، كأنَّها جرسٌ داخليٌّ ينبّه النَّفس، لا بلفظها فحسب، بل بتركيبها الصَّوتيِّ ذاته؛ إذ تأمَّلنا حروفها: فكلّها من

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: 1/ 880.

الحروف القويّة، وخصوصًا القاف والعين، وهما حرفان جهوريّان - والقاف حرف انفجاري كذلك -، يُشعران السّامع ولو لم يفهم المعنى، بأنَّ ثَمَّة أمرًا جللًا على وشك أن يُهلك أو يُفزع؛ فهي ليست اسمًا جامدًا، كالسّاعة، بل اسمٌ مشتقٌّ، يدلُّ في ذاته على الفعل والحدوث، ممّا يجعله حيًّا في الذِّهن، متحرِّكًا في الحسّ، كأنَّنا أمام شيء يحدث، لا مجرَّد مصطلح نؤمن به.

توجيه استعمال مفردة الواقعة بين مطلع السّورة وذكرها في سورة الحاقّة:

ابتُدئ بالواقِعَة لبيان مآل النّاس في الآخرة بينما في الحاقّة فهي نتيجةٌ لذكر أهوال القيامة

ابتدأت سورة الواقعة بهذا الاسم الجليل، وافتُتحت على مشهد الوقوع من غير مقدّمات زمنيَّة؛ مشهد مباشر مهيب، يتلقّاه السّامع وكأنَّه حدث في التَّوِّ، ثمَّ يُسارع السّياق إلى نفي احتمال الكذب عنه، لا بمجرَّد منع التَّكذيب، بل بنفي ذات الكاذبة، وهو أسلوب قرآنيٌّ يُقصَد به ترسيخ الحقيقة، وقطع الشَّكِّ من الجذور.

ثمَّ يمضي السّياق إلى تصوير الآثار النَّفسيَّة والاجتماعيَّة لهذا الحدث، فيُبيِّن أنَّ الواقِعَة تُحدِث انقلابًا في الموازين، فهي ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، تَهوي بأقوام وتُعلي آخرين، وتقسّم الخلق إلى مراتب ثلاث: السّابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشِّمال، فكأنَّ السّورة تُركّز على الأثر البشريِّ ليوم القيامة، وما يُفضي إليه من فرز المصائر على ضوء العمل في الحياة الدُّنيا.

وأمّا في سورة الحاقَّة، فقد جاء ذكر الواقِعَة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [الحاقّة: 13 - 15] فلم يُبتدأ بها بل قُدِّم عليها تصوير انفراط النِّظام الكونيِّ؛ النَّفخ في الصّور، ودكّ الأرض والجبال، في مشهدٍ يفوق التَّصوُّر ويخلع القلوب من مواضعها. ثمَّ يُختم هذا المقطع بقوله: ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، فهي ثمرة هذا الزِّلزال الكونيِّ، ونتيجة حتميَّة لانهيار أركان العالم المنظور.

ففي الواقِعَة كانت العناية بمصائر البشر بعد الوقوع، وأمّا في الحاقَّة، فالعناية بمشهد الكَون حين يقع الحدث، فكلُّ موضعٍ يُعنى بجانب من جوانب ذلك اليوم العظيم، فالحاقَّة ترسم مقدِّماته الكونيَّة، والواقِعَة تُظهر آثاره الأخرويَّة.

بلاغة استعمال ﴿لَيْسَ﴾:

توكيد حتميَّة حصول الواقِعَة ونفي الكذب عنها

استعمل النّظم الكريم أداة النَّفي ﴿لَيْسَ﴾ في قوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، دون سائر أدوات النَّفي، كـ (ما) أو (لا)، فليس في أصل وضعها، تُفيد النَّفي عن الوجود أو التَّحقُّق، لا عن مجرَّد النِّسبة الزَّمنيَّة، إذ هي مركّبة من (لا) النافية، والفعل (أيس)، وهو بمعنى (كان) أو (وجد)، فكأن ﴿لَيْسَ﴾ تعني حرفيًا: (لا وُجد شيءٌ على هذه الصفة)، فهي أقوى أدوات النفي في العربية من جهة الدلالة على القطع والاستمرار والامتناع[1].

وعليه، فإنَّ اختيار ﴿لَيْسَ﴾ في هذا الموضع يدلُّ على أنَّ نفي الكاذبة عن الواقِعَة ليس نفيًا مؤقتًا أو ظرفيًّا، بل هو نفي قاطع في ذاته، نفي يُنكر أصل وجود من يُكذّب، لا مجرَّد صدور التَّكذيب، فهو نفي للكينونة ذاتها، لا لفعلٍ عارض، والنَّفي بليس من أقطع أدوات النَّفي المراد بها تقرير وقوع الأحداث.

وقد تكون للاستمرار كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: 51][2]. وهذا المعنى يُناسب السّياق القرآنيَّ الَّذي يريد أن يغرس في النَّفس أنَّ (الواقِعَة) لا تُكذّب لا عقلًا ولا واقعًا؛ فإذا وقعت، انكشفت بحقائقها، وصدَّقها الخلق كلُّهم، ولم يبق موضعٌ لإنكار ولا موطنٌ للمراء. فالكاذبة عنها غير موجودة في الوجود، لا ذاتًا ولا وصفًا، لا من جهة الفكر ولا من جهة الواقع.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 228.
(2) السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 163.

نوع اللّام ودلالتها:

الحقائق تظهر للمؤمنين في آيات القرآن ولغيرِهم وقت وقوعها

اختلف أهل اللُّغة والتَّفسير في توجيه اللّام في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، أهي للظَّرفيَّة، أم لشيء أخصَّ من ذلك؟ فمنهم من رأى أنَّها لام الظَّرفيَّة، بمعنى (في)، على نحو: ليس كاذبة تكون في وقت وقوع الواقِعَة[1]. وهو معنى لا يخلو من مناسبة، لا سيِّما وأنَّ أداة ﴿إِذَا﴾ تقتضي ظرفًا زمانيًّا معيَّنًا. فيكون في ذلك إشارة إلى أنَّ الكذب لا يقع في زمن هذه الواقِعَة؛ لأنَّه زمنُ الحقِّ الخالص الَّذي لا يخالطه مراء، ولا ينفذ إليه شكّ، وقد قيل إنَّ القيامة سُمّيت واقعة؛ لشدَّة صوتها، ولأنَّها تدهم الوجود كلَّه دفعة واحدة، فلا يُحتمل في ذلك التَّوقيت حضورُ تكذيب، ولا إمكان ردٍّ.

فائدة الجناس الاشتقاقيّ:

التّناغم بين الأثر الصّوتيّ والدَّلالة النّفسيّة

في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، تركيب بديعيّ من أرقى ضروب البيان القرآنيِّ، إذ اجتمع فيه محسن التَّجنيس في أبهى صوره، وهو من باب الجناس الاشتقاقيِّ الَّذي لا يُقصد به مجرَّد تكرار اللَّفظ، وإنَّما إحداث أثر صوتيّ ومعنويّ يعمّق حضور المعنى في النَّفس ويُؤكِّده في الإدراك[2].

فقد جيء بالفعل ﴿وَقَعَتِ﴾، وهو ماضٍ من الجذر اللُّغويِّ (و ق ع)، ليعبّر عن حصول الفعل وثبوته، ثمَّ أُتبع باسم الفاعل ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾، وهو اسم علم بالغلبة ليوم القيامة، مأخوذ من الجذر نفسه، فجاء التَّركيب على صورة: فعل من الجذر يتقدّم، ثمَّ اسم من الجذر نفسه يتلوه، فكان لذلك جرْس صوتيٌّ لا تخفى آثاره على أذن المستمع، ولا على وعي المتدبِّر.

(1) البنتنيّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 2/ 481.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 281 - 282.

وهذا الجناس ليس من التَّكرار العارض، ولا من الزّينة اللَّفظيَّة المجرَّدة، بل هو محمّل بأغراض التَّوكيد والتَّثبيت، إذ يُفيد تكرار الجذر هنا توكيد الوقوع من جهتين: جهة الفعل، وجهة الحدث نفسه، والمعنى: إذا حدث الحدث الَّذي لا مردّ له، إذا وقع ما لا يُردُّ، فتتجلَّى في السَّمع والذِّهن صورة القيامة وقد انقضّت بالفعل، ووقعت لا محالة.

ثمَّ إنَّ أثر هذا التَّجنيس لا يقف عند حدِّ التَّوكيد الذِّهنيِّ، بل يمتدُّ إلى السَّمع، إذ إنَّ الجرس الصوتيَّ بين الكلمتين يُحدث تناسقًا في الإيقاع، ويُعطي للآية وزنًا فنيًّا، يجعلها تنطبع في النَّفس، وتحفظها الأذن بسهولة، فتتردَّد مع كلِّ تلاوة، وتعود على القلب بالإثبات في المعنى والتَّأثُّر في الشُّعور وهو ما يتناغم مع الدّلالة البلاغيَّة.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿لِوَقْعَتِهَا﴾:

واقعةُ القيامة تختصُّ بها من حيث الزَّمن والحدث والحال

إضافة لفظ الوقعة إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ يهدف إلى توضيح المعنى وتقوية الدَّلالة بين المضاف والمضاف إليه، وبهذا التَّركيب الدَّقيق تنشأ رابطة معنويَّة بين الحدث وزمانه، تُضيف إلى الجملة زيادة من التَّخصيص والتَّوكيد.

والَّذي يظهر أنَّ الإضافة هنا تؤول إلى التَّخصيص الزَّمنيِّ والتَّوكيد المعنويِّ في آن واحد، فهي تُحمّل الواقِعَة نفسها صفة حصريَّة: أنَّ زمنها هو الزَّمن الَّذي لا يُكذَّب فيه، وأن لحظتها لا يدخلها شكّ[1].

ثمَّ إنَّ هذه الإضافة، إذا نُظر إليها في ضوء النَّفي الواقع في صدر الجملة بـ ﴿لَيْسَ﴾، اتَّضح أنَّها قد زادت النَّفي قوَّة؛ لأنّ ما نُفي ليس مجرَّد الكذب، بل وُجِّهَ النَّفي إلى مكذِّبة لها في وقتها

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 102.

وضمن حقيقتها، فتولّد من ذلك نفي مركّب: لا كاذبة، لا في ذاتها، ولا في توقيتها، ولا في حال من أحوالها. وذلك أبلغ ما يكون في نفي التَّكذيب عن شيء، لا من جهة المدّعين فحسب، بل من جهة طبيعة الشَّيء المكذَّب ذاته، فصار وقوع الواقِعَة حقيقةً مُطلقةً لا يمكن أن تُنكر؛ لأنَّها حين تقع، تغلق على السّامع باب الجدل، وتُخرس ألسنة التَّكذيب، وتجعل من لحظتها شهادة قائمة بذاتها.

غرضُ تقديم المُسند على المُسند إليه:

محور السّياق على الواقعة فكانت العناية بألفاظِها أظهر وبإيقاعها أبهر

في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، قُدِّم ذكر المسند، وهو الجار والمجرور ﴿لِوَقْعَتِهَا﴾، على المسند إليه ﴿كَاذِبَةٌ﴾، لوجهٍ بلاغيٍّ مقصود، يَفيض أثرُه في توجيه المعنى وتقوية الحُكم. فالتَّقديم هنا يفيد التَّخصيص والتَّوكيد، ويُنشئ في النَّفس تركيزًا شديدًا على الحدث ذاته[1]. فالجملة تُلقي بثقل المعنى مباشرة على (الواقِعَة)، لا على الكذب، وكأنَّها تُعلن منذ البدء أنَّ هذه الواقِعَة هي الأصل، وهي المحور، وهي المقصودة بالبيان، وأنَّ سائر ما يُقال في الجملة إنَّما يأتي تابعًا لتوكيدها وتحصينها من الإنكار. فإذا كانت الواقِعَة هي الحدثَ الأعظمَ الَّذي لا يُماثله شيء، فقد كان من تمام المناسبة أن يتقدّم ذكرها، لتكون في صدر الاهتمام وفي بؤرة الإدراك.

وهذا التَّقديم يُضفي على الجملة أيضًا إيقاعًا خاصًّا؛ لأنَّ تكرار الجذر (وقع) في ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، ثمَّ استئناف الكلام بتقديم ﴿لِوَقْعَتِهَا﴾، يُحدث جرسًا صوتيًّا يُحكم التَّوازن، ويُثبّت في الأذن ذلك الشُّعور بأنَّ الكلمة نفسها - الواقِعَة - قد صارت تُدوي في السَّمع مرَّتين بتوكيدين مختلفين: مرَّة بالفعل، ومرَّة بالإضافة. ومع تقديم هذا المقطع على الخبر، تُصبح الواقِعَة هي مركز الثِّقل الصَّوتيِّ والمعنويِّ في الجملة، وتدور حولها المعاني كلُّها.

(1) حسن طَبَل، علم المعاني في الموروث البلاغيّ، ص: 130.

غرض حذف الموصوف لمفردة ﴿كَاذِبَةٌ﴾:

الواقعة حقيقة واقعة فلا كذب لها ولا تكذيب

تحتمل مفردة ﴿كَاذِبَةٌ﴾ أن تكون صفة لمحذوفٍ، تقديره: (نفس)، أي: تنتفي كلّ نفس كاذبة[1]. والمعنى "نفس تكذب على الله وتكذب في تكذيب الغيب؛ لأنّ كلَّ نفس حينئذٍ مؤمنة صادقة مصدّقة، وأكثر النُّفوس اليوم كواذب مكذِّبات، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: 84]، وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الشُّعراء: 201]"[2]، وقيل: ليس لوقعتها قضيَّةٌ كاذبةٌ فيها؛ لإخبار الله تعالى بها، ودلالة العقل عليها، وقيل: ليس لها نفسٌ كاذبةٌ في الخبر بها[3].

توجيه ﴿كَاذِبَةٌ﴾ بين المصدريَّة والوصفيَّة:

الواقعة واقعة في موقع الصدق والكذب واقعٌ عن القبول في مهايع العقول

لفظ الكاذبة في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، يحتمل أن يكون مصدرًا على وزن فاعلة كـ (العافية) و(العاقبة)، ويحتمل البقاء على أصله في الوصف، أي اسم فاعل بمعنى: شيء يتَّصف بالكذب. والوجهان محتملان من جهة اللُّغة، لكن لكلٍّ منهما دلالة بلاغيَّة تُلقي ضوءًا مختلفًا على المعنى المراد.

فأمّا التَّوجيه الأوَّل - وهو أنَّ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ صفة، أي اسم فاعل - فالمعنى أنَّ الكاذبة - من حيث الوصف - لا توجد أبدًا في نسبةٍ إلى هذه الواقِعَة، لا من جهة ذاتها ولا من جهة أحدٍ يتكلَّم عنها. فـ(الواقِعَة) في هذا الوجه منزّهة في ذاتها عن الكذب، فهي حقيقة مطلقة لا توصَف إلّا بالصِّدق، ولا تخضع لتشكيك. وهذا المعنى يُفيد أنَّ الحدث نفسه يمتنع أن يوصَف بغير الحقيقة، وأنَّ (الواقِعَة) لا تقع إلّا على وجهها، من غير لبس ولا تمويه، كما لا تُقابَل حينئذٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 281.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 454.
(3) المُجاشِعي، النّكت في القرآن الكريم، ص: 478.

بأيّ جهةٍ تنكر أو تطعن. وفي هذا التَّوجيه نلمح إشارة عميقة إلى أنَّ الواقِعَة هي بذاتها حقٌّ ناطق، ناصع لا يشوبه ريب، كأنَّ الآية تنفي عن الواقِعَة أن تكون شبيهةً بما قد يظنُّه النّاس خيالًا أو وهمًا، بل تُعلن أنَّها واقعٌ من الحقِّ، ومظهر من مظاهر العدل الإلهيِّ، وأنَّ حقيقتها ذات صدقٍ لا يتزلزل، ولا يحتاج إلى برهان خارجيٍّ.

وأمّا الوجه الثّاني، وهو أنَّ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ مصدر بمعنى (كذب)، كما تقول: (العاقبة)[1]؛ فالمعنى عندئذ يكون أنَّ الكذب – كفعل أو حال – منفيّ في شأن هذه الواقِعَة؛ أي لا يعتريها كذب لا في الإخبار عنها، ولا في ظهورها، ولا في تفاصيل وقوعها. وهي إذ توصَف بخلوّها من الكذب، فإنَّ ذلك لا يعود فقط على حالتها عند النّاس، بل على ذات وقوعها، فيكون نفي الكذب هنا نفيًا شاملًا لكل جهة، سواء أكانت جهة القول أم جهة التَّأويل والاعتقاد. وهذا التَّوجيه يُضيف بُعدًا من الشُّمول إلى نفي الكذب، فيُفهم منه أنَّ الواقِعَة – أي يوم القيامة – خالية من أي وجه من وجوه الزَّيف، فلا يتخلَّلها تمويه، ولا يصحبها باطل، بل تأتي في مقام التَّجلّي، فيسقط الكذب من الوجود في حضرتها، ويثبت الحقُّ ظاهرًا لا يحتاج إلى حُجّة.

ومع أنّ كلا التَّوجيهين سائغ في العربيَّة ومقبول بلاغيًّا، إلّا أنّ الأسلوب يميل إلى التَّوجيه الوصفيِّ أكثر من المصدريِّ؛ لأنَّ السّياق يُراد به إثبات صدق الواقِعَة ذاتها في وجه من قد يُكذّبها قبل وقوعها، فجاء التَّعبير باسم الفاعل ﴿كَاذِبَةٌ﴾ لا ليُشار إلى مجرَّد غياب الكذب، بل ليُثبت أنَّ هذه الواقِعَة لا تتّصف به، ولا تدانيه من أي جهة. والمعنى: إنَّها ليست محلًّا للشَّكِّ، ولا موطنًا للمراء، ولا ذاتًا تحتمل كذبًا.

نكتة التَّعبير بصيغة اسم الفاعل:

آثر النّظم الكريم التَّعبير باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، ذلك أنَّ اسم الفاعل، مشتقٌّ من الفعل ليدلَّ على ذاتٍ موصوفة بالفعل، لا على مجرَّد الوقوع. وهو: "ما اشتقَّ من فعل لمن قامَ بهِ بمَعنى الحُدوث"[2]. فالعدول عن الفعل إلى اسم الفاعل كثيرًا ما يكون للتَّمكُّن والثَّبات والإيجاز، فاسم الفاعل يدلُّ على صيرورة الفعل إلى كونه خلقًا

(1) المُجاشِعيّ، النّكت في القرآن الكريم، ص: 478.
(2) السّيوطيّ، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرّسوم: 1/ 87، والرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 76.

شمول نفي الكذب عن الواقعة في الزّمان كلّه فلا يتطرّق إليه الاحتمال

أو طبيعة؛ فهو يدلُّ على الحدوث في أصله، لكنَّه في صياغته يُكسِب الفعل صفة الاستمرار أو الإمكان الدّائم، والمعنى: أنَّ الكذب لا يمكن أن يكون من صفات هذه الواقِعَة، لا في أصلها ولا في فروعها، لا في ظاهرها ولا في حقيقتها، لا في الماضي، ولا في الحاضر، ولا في المُتوهَّم من المستقبل.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الواقِعَة والحاقَّة والقارِعَة والطّامَّة والصّاخّة والقيامَة:

تعدّد أسماء يوم القيامة في القرآن الكريم تنوّع مقاميّ لا ترادف لغويّ

من الملاحظ في أسماء يوم القيامة في القرآن الكريم، أنَّ كلَّ اسم منها قد صيغ بدقّة معجميَّة وبلاغيَّة، بحيث يُبرِز جانبًا مخصوصًا من أهوال ذلك اليوم أو حقيقته العقديَّة، فلا تكاد تجد اسمًا مرادفًا للآخر، بل لكلٍّ واحد منها مقام ومعنى ووقعٌ نفسيٌّ خاصٌّ.

الواقِعَة إظهار حتميَّة الوقوع والصِّدق المطلق

فأمّا الواقِعَة، فهي من الجذر وقَعَ، يدلُّ على الحدوث المُؤكَّد، والوقوع الثّابت، لا المحتمل، وقد جاءت معرفة بالألف واللّام، لتدلَّ على الكمال في كونها الواقِعَة الَّتي لا واقعة غيرها، ثمَّ جاء بعدها نفي الكاذبة؛ ليُحكِم دلالتها على الصِّدق القطعيِّ والتَّحقُّق المطلق، فكأنَّها عند ذكرها تقع في النَّفس كما تقع في الواقع. وهي تبرز جانب الحتميَّة والقطع، وكأنَّها تُقال في مقام إثبات لا يقبل الجدل، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، فجعل الصِّدق فيها مركوزًا في ذاتها، لا في برهان يُستخرج عليها.

الحاقَّة اسم يكشف الحقيقة ويقضي على الباطل في يوم لا ريب فيه

وأمّا الحاقَّة، فهي من حقّ، والحقُّ نقيض الباطل. حقَّ الشَّيء يَحِقُّ حَقًّا أي وجَبَ وُجوبًا[1]. فجاء الاسم ليدلَّ على أنَّ القيامة هي الَّتي تُحقُّ الحقَّ وتُبطل الباطل، فهي في ذاتها مِعيار الفصل، ويومها يوم البيان، لا يلتبس فيه شيء، بل تنكشف فيه الحقائق كما هي،

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (حقّ).

دون لَبْسٍ أو تزوير. ولذا كان هذا الاسم شديد الوقع في سياقات التَّهديد للمكذّبين، لأنَّ الحاقَّة تُبطل كلَّ قول باطل، وتُظهر الحقيقة ظهورًا لا يُدفع.

القارعة صدمة تنفذ إلى القلب لا إلى السَّمع وحده

وأمّا القارعة، فمن قَرَعَ، ومعظم الباب من ضرب الشَّيء. يقال قرعت الشَّيء أقرعه: ضربته[1]. وهو الضَّرب الشَّديد المفاجئ، بصوتٍ يبلغ القلب، لا الأذن فحسب. والقارِعَةُ: القيامةُ. والقارِعةُ: الشِّدَّةُ. وفلانٌ أمِن قَوارِعَ الدَّهر: أي شدائده وقوارِعُ القُرآن نحو آية الكُرسيّ، يقال: من قَرَأها لم تُصِبه قارعة. وكلُّ شيءٍ ضربته فقد قَرَعتَه[2]. فالقارعة اسم لما يُحدث الصَّدمة المباغتة، الَّتي تطرق الوعي الإنسانيَّ طرقًا عنيفًا، فتكشف له من الهول ما لم يكن يتصوَّره. وهي تُقال في مواضع تبكيت النَّفس وهزّها من غفلتها، ولهذا كانت القارعة ترجّ النَّفس رجًّا، وتدقّها دقًّا بصوت الفاجعة الكبرى.

الطّامَّة الكبرى المصيبة الَّتي لا تُدانيها مصيبة

وأمّا الطّامَّة الكبرى، فهي من طَمَّ، أي غطّى وعمّ، طمَّ الماء يطمُّ طمًّا وطمومًا إذا ارتَفع. وكلُّ شَيء أفرط في ارتِفاع فقد طمَّ[3]. فدلالتها على الشُّمول والاجتياح، لا على المفاجأة. إنَّها المصيبة الَّتي تتجاوز حدّ التَّحمّل البشريِّ، وتغمر كلَّ شيء، فلا تُبقي شيئًا على حاله. وهي كناية عن المصير المحتوم الَّذي يُغطي الدُّنيا ويطويها طيًّا، فاستُخدمت في القرآن مقترنة بـ(الكبرى) للتَّفخيم، إشارة إلى أنَّ ما بعدها لا يُقاس عليه، ولا يشبهه شيء قبله.

الصّاخَّة الانفجار السَّمعيُّ الَّذي يباغت الفطرة ويزلزل الطُّمأنينة

وأمّا الصّاخَّة، فهي من صخّ، أي رفع الصَّوت حتَّى صار يصمّ الآذان. صخُّ الصَّخرة وصخيخها: صوتها إذا ضربتها بحجر أو غيره، وكلُّ صوت من وقع صخرة على صخرة ونحوه صخٌّ وصخيخ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرع).
(2) الخليل، العين: (قرع).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المُحكم: (طمّ).

وقد صخَّت تصخُّ[1]. والصّاخَّة: القيامة، تدلُّ على النَّفخة أو الصَّيحة الَّتي تُفجّر الأسماع وتقطع السَّمع من شدّتها. وقد جاءت لتصوُّر جانب الانفجار السَّمعيِّ الَّذي يُباغت الإنسان ويهلكه من شدّته، كأنَّ القيامة لا تبدأ بمنظر بل بصوت، يسحق الطُّمأنينة من جذورها.

القيامة قيام الخلق والحساب والعدل في لحظة التَّحوُّل الكبرى

وأمّا القيامة، فهي من قام، أي نهض واستقام بعد سكون. فجاءت لتدلَّ على حدثٍ شامل، يقوم فيه النّاس من قبورهم، وتقوم فيه السَّماوات بأمر ربِّها، وتقوم فيه الحُجَّة على الخلق. وهي الاسم الأشمل من بين هذه الأسماء؛ لأنَّها تجمع قيام الخلق، وقيام الحساب، وقيام العدل، وقيام الأمر الإلهيِّ الأخير. فهي تحوّل الزَّمن من الدُّنيا إلى الآخرة، وتحوّل الإنسان من الغفلة إلى المشهد الحقِّ، وهي الاسم العَلَم.

تعدُّدُ أسماء القيامة بيان لا تكرار، وغايتها إيقاظٌ لا مجرَّد إنذار

وبهذا يتبيّن أنَّ كلَّ اسم من هذه الأسماء ليس تكرارًا، بل وجه من أوجه المشهد الواحد؛ فالواقِعَة تُثبت الوقوع، والحاقَّة تُظهر الحقَّ، والقارعة تُفزع، والطّامَّة تُغرق، والصّاخَّة تُفجّر السَّمع، والقيامة تُقيم العالم على حقيقة المصير.

فإذا اجتمعت في الذِّهن هذه الأسماء، اجتمع معها رعبُ الصَّوت، وقطع اليقين، وهيمنة المصير، وانكشاف الحقِّ، وانقلاب النِّظام، وقيام الخلق، وذلك هو تمام المقصود من ذكر القيامة في القرآن: أن تكون يقظةً لا لفظًا، وتذكيرًا لا تكرارًا، ودعوةً لا مجرَّد تخويف.

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المُحكم: (صخّ).

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ [الواقِعَة: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقال من الوصف الإجماليّ إلى التّفصيل في مآلات النّاس

لمّا افتتحت السّورة بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، ناسب ذكر أحوالها مع النّاس في قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، لتُتمّ بناء المعنى في سياقٍ بيانيٍّ دقيق، يجمع بين الانتقال التَّدريجيِّ من المجمل إلى المفصّل، ومن ذات الواقِعَة إلى مفعولها في الخلق؛ فالسّامع إذ يسمع: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ ثمَّ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، يُحدّث نفسه: فما شأن هذه الواقِعَة؟ وما أثرها في العالم؟ فيأتي الجواب في كلمة واحدة مزدوجة التَّركيب، ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، لتكون بمثابة جواب بيانيٍّ وإيقاعيٍّ معًا، يَصف حقيقة ما تفعل هذه الواقِعَة حين تحلّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَافِضَةٌ﴾: (خفض) بمعنى أنزل وأذلّ، فالخفض: ضدُّ الرَّفع[1]. وخفض الشَّيء: حطَّه من علوٍّ، وحطَّه بعد علوٍّ[2]. وخفض صوته إذا سكنه، وخفض رأسه إذا طأطأه. و(الخافضة) اسم فاعل تدلُّ على الجهة أو الحالة أو الأمر الَّذي يوقع الخفض والإذلال، ويقابله في المعنى (رافع)، وفي سياق الآية، جاء هذا الوصف للواقعة، أي للقيامة، بأنَّها خافِضَةٌ؛ أي: إنَّها تُذلّ أقوامًا كانوا في الدُّنيا مرفوعين بالجاه والمال، فهي تخفض الجبابرة والمتكبِّرين.

2) ﴿رَّافِعَةٌ﴾: جذر الكلمة هو (رفع)؛ رفعت الشَّيء رفعًا، وهو ضدُّ الخفض. ومرفوع النّاقة في سيرها: خلاف الموضوع، ومن

(1) الخليل، العين: (خفض).
(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خفض).

الباب الرَّفع؛ تقريب الشَّيء. قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾، أي: مقرَّبة لهم، ومن ذلك قوله رفعته للسُّلطان[1]. فلمّا قال رافعة بمعنى التَّقريب ناسب قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، والرَّفع: إذاعة الشَّيء وإظهاره. تقول: رفعتُ الشَّيء أرفعه رفعًا، ورفع الله فلانًا: أعزّه وشرّفه، فجعل الرَّفع قرين التَّقدير والتَّكريم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّقابل المهيب بين الخفض والرَّفع في مشهد القيامة

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ وصفٌ للواقعة، يُبيّن ما تحدثه من انقلاب في الموازين، وهو مرفوع على الاستئناف، أي: هي خافِضَةٌ رّافِعَةٌ، ففي هذه الآية الوجيزة، ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، أودِعَ من المعاني ما يتشعّب عنه النَّظر وتتحرّك نحوه الأفكار؛ فهي في ظاهرها كلمتان متقابلتان؛ غير أنّ تقابلهما يفتح بابًا إلى تصويرٍ رهيب لمشهد القيامة. فالخافضةُ والرافعةُ ليستا مجرّد وصفين، بل هما سِمة لتلك الواقِعَة العظمى؛ فهي خافضةٌ تخفض أقوامًا من علياء ما كانوا فيه من جاه وسلطان وبطر، فتهوي بهم إلى دركات الهوان والعذاب، ورافعةٌ ترفع آخرين كانوا في دار الدُّنيا مستضعفين خاملين، فإذا بهم يومئذ في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وكأنَّ الآية تُلَمِّح إلى انقلاب شامل في الموازين، وانتقاضٍ لعرى الاعتبارات الأرضيَّة، فإذا الَّذي كان يُشار إليه بالبنان يُطأطئ رأسه في خزي، وإذا الَّذي كان في أعين النّاس حقيرًا يرتقي مراتب الكرامة والرِّضوان.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتة حذف المسند إليه:

تفخيم المشهد وتهويل الموقف في مباغتة الخبر للمتلقّي

حُذف المسند إليه في قولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، وهو على تقديرِ: هيَ خافِضَةٌ رّافِعَةٌ[2]، أو الواقِعَة يومئذٍ خافضة لقومٍ إلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفع).
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 9/ 200.

النّار، ورافعة لقوم إلى الجنَّة، ويمكن أن يُراد بها إذا وقعت وقعت خافضةً لقوم، رافعةً لآخرين، وحسن ذلك في الواقِعَة؛ لأنّ النَّصب قبله آية يحسن عليها السُّكوت، فحسن الضَّمير في المستأنف[1].

وهذا الحذفُ ليس من بابِ الإيجازِ البلاغيِّ فحسب، بل هو مقصودٌ لذاته؛ لأنّ المقامَ مقامُ تهويلٍ وتضخيم، وقد ابتدأتِ السّورةُ بالفعلِ الماضي: ﴿وَقَعَتِ﴾، الَّذي أحدثَ اهتزازًا في الأذنِ والقلبِ معًا، ثمّ توالَتِ الصِّفاتُ الكاشفةُ عن أثرِ هذا الحدثِ العظيم، فجاءتِ الجملةُ: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، لا لتخبرَ عن ذاتٍ بعينِها، بل لتُطلقَ المعنَى، وتجعلَ المتلقّي أمامَ حقيقةٍ ماثِلَةٍ لا تحتاجُ إلى تعريفٍ أو تحديدٍ.

فالحذفُ هنا يفيدُ التَّفخيمَ والتَّعظيمَ؛ لأنّه إذا وردَتِ الصِّفاتُ وحدَها دونَ ذِكرِ موصوفٍ، تَوَجَّهَ الذِّهنُ إلى تتبُّعِ ما يُطابِقُها من السّياقِ، فيكونُ أكثرَ حضورًا وتأثيرًا، كما أنّه يُشعِرُ بأنّ هذهِ الصِّفاتِ من القوّةِ والشّمولِ بحيثُ لا تُقيَّدُ بفاعلٍ معيَّنٍ؛ فالصّفات تجسَّدَت، وانبعثَت تنادي من تلقاءِ نفسِها، وهذا من أساليبِ السُّموِّ في البيانِ القرآنيِّ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿خَافِضَةٌ﴾:

الخفض ضدُّ الرَّفع، والتَّخفيض: مدُّك رأس البعير إلى الأرض: يكاد يستعصي على مخفضه[2]. وفي استعمالِ لفظِ ﴿خَافِضَةٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ بلاغة عميقة تُصيبُ وجدانَ السّامعِ قبلَ عقلِه، وتَسري في مسالكِ النَّفسِ تذكرةً وإنذارًا، وقد جُمِعَ في هذهِ المفردةِ من عناصرِ البيانِ ما يُفصحُ عن الهَولِ ويكشفُ عن سُنَنِ الجزاءِ الإلهيِّ؛ فالخَفضُ في أصلِه لغةً هو الإسقاطُ من العلوِّ، والإذلالُ بعدَ العِزِّ[3]، وهو يُصوِّر سقوط الطُّغاةِ، وانهيار الجبّارينَ، وذلَّ المتكبّرينَ الَّذينَ ظَنّوا أنّ لهم في الأرضِ مقامًا لا يُدانى، فلا رفعةَ لأحدٍ حتّى تُزاحَ عن الطَّريقِ جبالُ الزَّيفِ والغرورِ.

ثمَّ إنّ اللَّفظةَ نفسها، من حيثُ صوتُها، توحي بالشّدّةِ والهبوطِ، فحرفُ الخاءِ يُخرَجُ من أعمقِ الحلقِ، والضّادُ فيه قَسوَةٌ وثِقَلٌ، وكأنّها تُجسِّدُ وقعَ السّقوطِ، وتَرسُمُ بحروفِها نفسَ المشهَدِ الَّذي تصفهُ، في توافقٍ بديعٍ بينَ اللّفظِ والمعنَى.

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 121، والنّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 322.
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (خفض).
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خفض).

تجمع مفردة الخفض بين الإذلال المعنويّ والهبوط المادّيّ في تصويرٍ صوتيّ

فإذا سَمِعَها القلبُ، أيقنَ أنّ هذا الخفضَ ليس جزافًا، بل هو عدلٌ ربّانيٌّ، يُعيدُ الحقَّ إلى نصابِه، ويُسقِطُ الكِبرَ من عروشِه، لتتهيّأ الأرضُ لِرَفعِ مَن استُضعِفَ، وتَكريمِ مَن عُرِفَ بالصّدقِ والإيمانِ، فيا لَهُ من موقفٍ تقشعرُّ له الجلودُ، وتخشَعُ له القلوبُ.

نكتة التّعبير باسم الفاعل المؤنّث:

التّناسب اللّفظيّ والتّلاؤم الدّلاليّ مع تحقيق المقصد من براعة الانتقاء القرآنيّ

جاء التّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المؤنّث، لمراعاة السّياقِ من جهةِ اللّفظِ والنّحوِ معًا؛ إذ جاءتِ الألفاظُ السّابقةُ - ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ و﴿لِوَقْعَتِهَا﴾ - على صيغةِ التّأنيث، فكانَ مُقتضى المطابقةِ في السّياقِ أن تردَ الصّفاتُ على نحوٍ مؤنّثٍ كذلكَ، فجاءَ قولُه: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، موافقًا من جهةِ اللّفظِ والمعنى.

واستعمال اسمِ الفاعلِ لا يَخلو من دلالةٍ بلاغيّةٍ مقصودةٍ؛ إذ إنَّ صيغةَ اسمِ الفاعلِ تدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوامِ، لا على مجرَّدِ الحدوثِ الطّارئِ كما هو الشّأنُ في الفعلِ. فلو قيلَ: (تخفضُ وترفعُ)، لأوهمَ ذلكَ أنَّ الخفضَ والرَّفعَ من قبيلِ الفعلِ الواقعِ مرَّةً أو مرارًا، بيدَ أنَّ اسمَ الفاعلِ يُشعرُ بأنَّ هذه الأوصافَ قائمةٌ بذاتِ الواقِعَة، وأنَّها ملازمةٌ لها، فهي في حقيقتِها خافِضَةٌ رّافِعَةٌ، على جهةِ الوصفِ الذّاتيِّ.

ومن جهةِ المعنى، فإنَّ هذا التَّركيبَ يُنبئُ عن عِظمِ شأنِ الواقِعَة، ويوحي بأنَّ ما ستُحدثُه من انقلابٍ في الأحوالِ وتبديلٍ في المراتبِ، إنَّما هو نابعٌ من ذاتِها، لا ممّا أُسندَ إليها من فعلٍ خارجيٍّ؛ فهي خافضةٌ لأقوامٍ، رافعةٌ لآخرينَ، بسُلطانِها الَّذي لا يُرَدُّ، وقضائِها الَّذي لا يُدفَعُ.

وأمّا التَّأنيثُ، فليسَ ممّا يُفهمُ منه التَّهوينُ أو التَّليينُ، بل قد جرى في كلامِ العربِ أن يُستعملَ التَّأنيثُ لزيادةِ الهيبةِ أو لتكثيرِ الحدثِ وتعظيمِ أثرِه، كما في وصفِ (الدّاهيةِ) ونحوِها، فكانَ في

مجيءِ الوصفِ مؤنَّثًا مزيدُ تقريرٍ لهولِ الواقِعَة، وتفخيمٌ لشأنِها، حتَّى تُخيِّلَ للسّامعِ أنَّها قوَّةٌ عُظمى تجري بأمرِ اللّهِ، تُقلِّبُ نظامَ الأشياءِ، وتُبدِّلُ المعاييرَ، وتُنزِلُ الأمورَ منازلَها بما لا يدعُ لذي حيلةٍ حيلةً، ولا لمتقدِّمٍ فضلًا على مَن تأخَّرَ إلّا ما شاءَ اللّهُ.

فتلكَ الأوصافُ، وإن كانت جاءت على نحوِ التَّأنيثِ اللَّفظيِّ، فهي في المعنى صفاتُ جلالٍ وعظمةٍ، ترسمُ صورةً لما يكونُ من أهوالِ يومِ القيامةِ، على وجهٍ يحملُ السّامعَ على التَّفكُّرِ والخشيةِ.

الغرض من تنكير لفظ ﴿خَافِضَةٌ﴾ وفوائده البلاغيَّة:

تهويل المشهد وتفخيم الموقف وتعميم الأثر في النُّفوسِ

نُكِّرُ لفظ ﴿خَافِضَةٌ﴾، لما تقرَّر في علم المعاني بأنَّه إذا وردَ في مقامِ التَّهويلِ، دلّ على عِظمِ الشَّأنِ[1]، وأوقعَ في النَّفسِ وقعًا من الرَّهبةِ والدَّهشةِ؛ فمفردة ﴿خَافِضَةٌ﴾ هنا ليست خافضةً على وجهِ الإطلاقِ فحسبُ، بل هي خافضةٌ عظيمةُ الأثرِ، مجهولةُ المدى، لا يُدرى مبلغُ ما تُسقِطهُ من المراتبِ والذَّواتِ، ولا من همُ الَّذينَ تنالُهم يدُ الخفضِ.

وفي هذا الإبهامِ المستفادِ من التَّنكيرِ ما يُثيرُ في النَّفسِ اضطرابًا ووجلًا، إذ السّامعُ لا يستطيعُ أن يُحدّدَ مَنِ المنخفضونَ؟ ولا كيفَ يكونُ خفضُهم؟ ولا إلى أيّ درك يُلقَونَ؟ وهذا اللَّونُ من الخطابِ متناسقٌ مع السّياقِ العامِّ للسّورةِ، الَّتي جاءت لتصويرِ أحوالِ يومٍ عظيمٍ، تتبدّلُ فيهِ المراتبُ، وتنقلبُ فيهِ الموازينُ انقلابًا شاملًا لا يستثني أحدًا. كما أنّ في التَّنكيرِ دلالةً على التَّعميمِ، فمفردةُ ﴿خَافِضَةٌ﴾ تشملُ كلّ منِ استحقّ الخفضَ، من غيرِ تعيينٍ ولا تخصيصٍ، إذ ليستِ الواقِعَة مقيّدةً بأسماءٍ أو ألقابٍ أو أنسابٍ، بل هي تجري على سنّةِ العدلِ الإلهيِّ، تخفضُ المتكبّرينَ، الظّالمينَ، المترفينَ، وتضعُهم

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 27.

حيثُ لا قيامَ لهم، وترفَعُ من شاءَ اللّهُ من عبادِه الصّالحينَ. فاجتمعَ في هذا التّنكيرِ جملةٌ من المقاصدِ البلاغيّةِ؛ من حيث تفخيم قدرِ الواقِعَة، وتهويلُ مشهدِها، وتعميمُ أثرِها، فجاء كلّ ذلك؛ ليصبّ في الغايةِ النّفسيّةِ من المقامِ، وهي إثارةُ الرّهبةِ في قلبِ السّامعِ، وحملُه على التّبصُّرِ والاعتبارِ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿رَّافِعَةٌ﴾:

التّوازن البلاغيّ والإيحاء النّفسيّ في مشهد القيامة

استعمل النّظم الكريم مفردة ﴿رَّافِعَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، للإفصاح عن حالٍ ينقلب فيها نظام المقاييس وتُقلب فيها مراتب الخلق، فهي تصف حال الواقِعَة يوم تقوم القيامة، حين لا يوزن النّاس بمكانتهم في الدُّنيا، بل بمقامهم عند اللّه، فتُرفع أقوامٌ طالما طواهم الخمول في دنيا النّاس، فإذا هم في الآخرة مكرّمون مرفوعو المنزلة.

والرِّفعة هنا ليست رفعة المكان، بل رفعة القدر والمنزلة، فهي رفعة عند اللّه، يوم لا تنفع الوجاهات ولا الأنساب، وإنّما يُكرَم المرء بإيمانه وعمله، ويُقام له وزن بما كان عليه من تقوى وصدق. فهذه اللّفظة في سياقها ليست وصفًا جافًّا، بل إشراقة أمل تتلألأ في مشهد القيامة، تُعلِن أنّ ساعة الفصل لا تظلم أحدًا، وأنّها بعد أن تُسقِط الزّائف، ترفع الصّادق، وتُقيم الموازين القسط ليُؤتَى كلّ ذي حقّ حقّه، ولا يُعلى إلّا من عَلَت حقيقتُه.

نكتة التّعبير باسم الفاعل المؤنّث:

ثبات الصّفات وقوّة المفارقة الجامعة بين شدّة الموقف وديمومة الحال

جاء التّعبير بصيغةِ اسم الفاعلِ المؤنّثِ في قولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾؛ لإفادة الثّبات والدَّوام، فقولُه: ﴿خَافِضَةٌ﴾ لا يُفهَمُ على أنّه فعلٌ يقعُ مرّةً ثمّ ينقضي، بل يُفيدُ أنّها ذاتُ خفضٍ ملازم، و﴿رَّافِعَةٌ﴾ كذلك تدلُّ على أنّ ذلكَ شأنُها، وأنّ الخفضَ والرّفعَ طَبعٌ فيها، لا أنّها تفعلُهُ مرّةً ثمّ تبرأُ منهُ.

وفي هذا الاستعمالِ مفارقةٌ بلاغيّةٌ بالغةٌ، وذلكَ أنَّ الجمعَ بين صيغةِ المؤنّثِ - الّتي قد توهِمُ في العُرفِ ضعفًا أو رقّةً - وبين معنى القوّةِ والفعلِ الجَلَلِ (الخَفضِ والرَّفعِ)، يُحدِثُ انقلابًا في التَّصوّرِ، ويُثبِتُ أنَّ الواقِعَة - على ما فيها من أنوثةِ اللَّفظِ - ذاتُ أثرٍ عظيمٍ وقوّةٍ حاسمةٍ، تُبدِّلُ بها مراتبَ الخلقِ، وتُغيِّرُ بها مصائرَ النّاسِ. فذلكَ من دَقائقِ التَّصويرِ، أن يُقدَّمَ اللَّفظُ في صورةٍ فيها رقّةٌ ظاهريّةٌ، لكنَّه يدلُّ على فعلٍ هائلٍ في باطنِه. ثمَّ إنَّ التَّعبيرَ باسمِ الفاعلِ فيه توكيدٌ لصفةٍ قائمةٍ مستمرّةٍ، لا تُنسَبُ للواقعةِ على جهةِ الفعلِ المنقطعِ، بل تُعدّ وصفًا لازمًا لها، فهي خافِضَةٌ رّافِعَةٌ أبدًا، وذلكَ أنَّ يومَ القيامةِ ليسَ ظرفًا لحدثٍ عارضٍ، بل هو مظهرٌ لحقيقةٍ قائمةٍ، تنكشفُ فيها المراتبُ، وتتجلّى فيها المقاديرُ.

الغرض من تنكير لفظ ﴿رَّافِعَةٌ﴾:

التَّفخيم والتَّشويق وإبراز تفاوت مصائر المؤمنين

نُكِّر لَفظُ ﴿رَّافِعَةٌ﴾ لأغراضٍ بلاغيّةٍ رفيعةٍ، تُستفادُ من مقامِ السّياقِ وما يُحيطُ بهِ من جوٍّ منَ التّصويرِ، منها التّفخيم والتّعظيمُ؛ فإنّ تَنكيرَ النّعوتِ في سياقِ الإخبارِ عن أهوالِ يومِ القيامةِ، يُضفي على المعنى طابعًا منَ الغموضِ المقصودِ، والإجمالِ المُثيرِ، الّذي يُضخِّمُ في نفسِ السّامعِ حجمَ الحدثِ وأثرَهُ؛ فلفظ ﴿رَّافِعَةٌ﴾ لا تَدُلُّ على مجرّدِ الرّفعِ، بل على رِفعةٍ عظيمةٍ، لا يُدرى مداها، ولا تُحدّ مراتبُها، بل تَتركُ السّامعَ في حالٍ منَ التّرقُّبِ والانشداهِ. ومن جهةٍ أُخرى، فإنَّ هذا الإبهامَ البلاغيَّ يولِّدُ أثرًا نفسيًّا قويًّا، إذ يجعلُ السّامعَ يتساءلُ: من هؤلاءِ الّذينَ ستَرفعُهم الواقِعَة؟ وإلى أيّ مقامٍ يُرفَعونَ؟ وهل هُم من الّذينَ كنّا لا نأبَهُ لهم في الدّنيا؟ أو هُم منَ الخُلصاءِ الّذينَ خفيَت مقاماتُهم على النّاسِ؟ فتلكَ الأسئلةُ توقِظُ التّأمُّلَ، وتَبعثُ في النّفسِ تشويقًا وتوقُّعًا، يتلاءمُ مع المقصودِ من زلزلةِ القلوبِ في مشهدِ القيامةِ.

وثمّةَ وجهٌ آخَرُ في هذا التّنكيرِ، وهو ما يُفيدُ منَ التّكثيرِ والعمومِ والشّمولِ[1]؛ فإنّ التّعبيرَ بلفظٍ نكرةٍ في سياقِ الجزاءِ، يُشيرُ إلى أنَّ الرّفعَ لا يَختصُّ بجنسٍ ولا فئةٍ، بل يَشمَلُ كُلَّ من استحقَّهُ من عبادِ اللّهِ، مِمّنِ اصطفاهم بالإيمانِ والعملِ الصّالحِ.

علة تقديم ﴿خَافِضَةٌ﴾ على ﴿رَّافِعَةٌ﴾:

مناسبة تقديم التّهويل في مقامات التّهويل

قُدِّم ذكر ﴿خَافِضَةٌ﴾ على ﴿رَّافِعَةٌ﴾ مَقصودًا في نَظمِه؛ لما فيهِ من مُطابقةٍ لِحِكمةِ التّرتيبِ في مشاهدِ يومِ القيامةِ، فإنّ أكثرَ النّاسِ – في الدّنيا – قد رُفِعَت مَراتبُهم بالباطلِ، وحُمِلوا على الأهواءِ والجاهِ والمالِ، فجاءَتِ الواقِعَة لِتَقْلِبَ هذهِ الاعتباراتِ، فيكونَ أوّلُ آثارِها خَفضَ تلكَ الرّؤوسِ المُنتفخةِ، ثمّ رَفعَ أهلِ الخشيةِ والطّاعةِ.

ثمَّ إنَّ في بدايةِ القيامةِ ما يَدُلُّ على الهَدمِ والتّحطيمِ: زَلزلةُ الأرضِ، ونَسفُ الجبالِ، وتَدميرُ ما استَقَرَّ في الأذهانِ من ثوابتِ الدّنيا، وكُلُّها صوَرُ تخفيضٍ وهَدمٍ، تَسبِقُ مشهدَ الرّفعِ والتّرقّي، فناسبَ أن يُفتتحَ بالخَفضِ، إذ هو المشهدُ الأسبَقُ وُقوعًا، والأشدُّ أثرًا في النّفوسِ.

بديعُ الطِّباقِ الضِّدّيّ:

جمال التّضادّ والإيجاز يصوّر التّحوّل المصيريّ للبشر

من محاسنِ النَّظمِ القرآنيِّ في قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ وقوعُ الطِّباقِ، وهوَ من أفانينِ البلاغةِ الّتي تُستَعمَلُ لتقويةِ المعنى وإبرازِه بأضدادِه، فقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ جمع فيه بين الشَّيءِ وضدّه؛ إمّا وصفًا لها بالشِّدّة؛ لأنّ الواقعات العظام كذلك: يرتفع فيها ناسٌ إلى مراتب ويتَّضع آخرون، وإمّا لأنّ الأشقياء يحطّون إلى الدَّركات، والسّعداء يُرفعون إلى الدّرجات؛ وإمّا أنّها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارّها، فتخفض بعضًا وترفع بعضًا:

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.

حيث تسقط السّماء كسفًا وتنتثر الكواكب وتنكدر وتسير الجبال فتمرّ في الجوّ مرّ السَّحاب[1]. فإنّ ﴿خَافِضَةٌ﴾ ضدٌّ ﴿رَّافِعَةٌ﴾، وقد جُمِعَتا في تَركيبٍ واحدٍ؛ لإظهارِ التّناقضِ البالِغِ في أحوالِ الخلقِ يومَ تَقَعُ الواقِعَة. "قال السُّدّيُّ: خفضت المتكبِّرين ورفعت المستضعفين. وقال قتادة: خفضت أقوامًا في عذاب الله، ورفعت أقوامًا إلى طاعة الله. وقال عمر بن الخطّاب ﷺ: خفضت أعداء الله في النّار، ورفعت أولياء الله في الجنَّة"[2]. فالخافضةُ الرّافعةُ صفةٌ للواقعةِ، وهي القيامةُ، تخفِضُ مَن كانت لَهُم مكانةٌ في الدُّنيا ولم يعملوا للآخرةِ، وتَرفَعُ مَن كانوا مستضعفينَ أو فقراءَ، ولكنّهم مؤمنونَ وأتقياء.

التَّناسق الصَّوتيُّ بين الكلمتين:

التَّوازن الصَّوتيُّ بين الألفاظ متناغمٌ مع التّقابل في المعاني

وردَ في نظمِ الآيةِ توازنٌ بديعٌ بين كلمتَي: ﴿خَافِضَةٌ﴾ و﴿رَّافِعَةٌ﴾، إذ جُعلتا على وزنٍ واحدٍ (فاعلةٌ)، فجاءَ التَّركيبُ منسجمًا في إيقاعِه، دالًّا على ما أودِعَ فيه من دقّةِ المعنى ورهافةِ المبنى. وذلك من دلائلِ البلاغةِ القرآنيَّة، إذ أُشيرَ بهذا التَّقابلِ اللَّفظيِّ إلى المقابلةِ المعنويَّةِ، فكما يُخفَضُ شأنُ قومٍ يومَ القيامةِ بما كسبوا، يُرفَعُ قدرُ آخرين بعدلِ اللهِ، فجاءَ هذا الازدواجُ في اللَّفظِ مرآةً للعدلِ الإلهيِّ المطلقِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخفض والهبوط:

الهبوط نزولٌ يعقبه استقرار والخفض أعمّ دلالةً

الخفض يعني إنزال شيء إلى الأسفل أو تسطيح مكان مرتفع، وقد يُستخدم في سياقات خفض المكانة أو إنقاص المرتبة.

أمّا الهبوط فيأتي للدَّلالة على إنزال شيء من علو إلى أسفل مع أثر، ويُستعمل بمعنى الطَّرد أو الانخفاض، وقد يتضمَّن فكرة التَّراجع أو الانحدار بشكل أكثر قوَّة وحسمًا. قال العسكريّ: "الهبوط

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 455.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 195.

نزول يعقبه إقامَة ومن ثمَّ قيل هبطنا مَكان كَذا، أي: نزلنا، ومِنه قَوله تَعالَى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: 61]، وقوله تَعالَى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: 38]، مَعناهُ: انزلوا الأرض للإقامة فيها، ولا يُقال: هَبَط الأرض إلّا إذا استَقرَّ فيها، ويُقال: نزول وإن لم يستَقرّ"[1].

الرَّفع والإعلاء:

الرَّفع يطرأ على الشَّيءِ والعلو وصف ثابتٌ

الرَّفع هو زيادة الارتفاع أو التَّحسين بشكل عامٍّ، سواء كان مادّيًّا أو معنويًّا. فهو رفعة في المكانة أو الأعلى، سواء كان الرَّفع مادّيًّا كرفع شيء في السَّماء، أو معنويًّا مثل رفع الجاه والمقام. إذ يأتي بمعنى الرِّفعة الاجتماعيَّة أو الروحيَّة، مثل رفع الشَّخص بعمله أو إيمانه، أو رفع درجاته في الجنَّة. قال تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ [الشَّرح: 4] في رفع ذكرِ النَّبيِّ محمَّد ﷺ، وتعظيمه.

أمّا الإعلاء فيشير إلى الرَّفع بشكل أكبر وأسمى، وهو يَحمل دلالة السُّمو أو التَّعظيم. إذ يشير الإعلاء إلى رفع شيء إلى أقصى درجاته أو رفعه في مرتبة عليا عظيمة. وغالبًا ما يأتي الإعلاء في السّياقات الَّتي تتعلَّق بالرِّفعة العظيمة والمتفوِّقة، خاصَّة عندما يكون الحديث عن الرِّفعة الرّوحيَّة أو الدّينيَّة.

قال العسكريّ: هما بمعنًى في اللُّغة، وهو الفوقيَّة. وقد يخصَّص العلوُّ في حقِّه سبحانه بعلوِّه على الخلق بالقدرة عليهم. والرّفعةُ بارتفاعه عن الأشياء، والاتِّصافِ بصفاتها وبالعكس. والعليّ من أسماء اللّه الحسنى وكذلك فإنّ الرّفيع من جملة أسماء اللّه سبحانه[2].

ويكمن الفرق بينهما في كون (الرَّفع) مُرتبطًا في الغالب بالقوَّة والقدرة الطَّبيعيَّة على رفع الأفراد وفقًا لما يستحقّونه، فالرّفع يطرأ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 296.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 258.

على المرفوع، بينما (الإعلاء) مرتبط في الغالب برفعة متفوِّقة ومستدامة لا يمكن الوصول إليها إلّا بأعلى درجات الجهد والطّاعة؛ فالرَّفع زيادة في المكانة والدَّرجة، والإعلاء أعلى درجات الرِّفعة، ويرتبط بمقامٍ عالٍ جدًّا، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: 57]؛ فالرّفع طارئ، والمكان العالي ثابت.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"